| | |
|---|---|
| العنوان: | نابلس في العصر المملوكي 648 - 923هـ ( 1250 - 1517م ) |
| المؤلف الرئيسي: | العزة، رئيسة عبدالفتاح طلب |
| مؤلفين آخرين: | خرابشة، سليمان عبد(مشرف) |
| التاريخ الميلادي: | 1995 |
| موقع: | اربد |
| الصفحات: | 1 - 193 |
| رقم MD: | 729884 |
| نوع المحتوى: | رسائل جامعية |
| الدرجة العلمية: | رسالة ماجستير |
| الجامعة: | جامعة اليرموك |
| الكلية: | كلية الآداب |
| الدولة: | الاردن |
| قواعد المعلومات: | Dissertations |
| مواضيع: | نابلس، التاريخ الاسلامي، عصر المماليك |
| رابط: | http://search.mandumah.com/Record/729884 |

# الفصل الثاني

# الحياة السياسية في نابلس

# نابلس في العصر الايوبي

بعد انتهاء معركة حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م) توجهت قوة من قوات صلاح الدين بقيادة حسام الدين لاجين باتجاه مدينة نابلس، حيث تمكنت وبمساعدة من سكان المدينة المسلمين من تحرير المدينة(١) ، وردها الى الحظيرة الاسلامية، وقد اقدم السلطان صلاح الدين بعد التحرير على اقطاع نابلس واعمالها وضياعها ونواحيها وقلاعها لإبن اخته الامير حسام الدين لاجين(٢) ، المشهور بالعدل والامان الامر الذي ساعد على استقرار المنطقة وقد اشار البنداري لذلك فقال: عن نابلس "فعادت بلدة محشوة بساكنيها كالرمان وبقيت الى اخر عهده وعمّرت بعدله واحسانه، رفقة ورفده(٣).

وبوفاة الامير حسام الدين لاجين ٥٨٧هـ/١١٨٤(٤) ، انتقل اقطاع نابلس لسيف الدين بن المشطوب(٥)، علي بن احمد الهكاري(٦) والذي وصفته كتب التراجم بالجور والظلم حيث تغير حال مدينة نابلس الأمر الذي دفع سكان نابلس للتصريح بشكواهم الى صلاح الدين

---

(١) ابو شامة: شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن المقدسي: الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل بيروت، د.ن،ج٢،ص٨٨، وسيشار اليه فيما بعد أبو شامة: الروضتين

(٢) البنداري، الفتح بن علي: سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩ص ٣٠٢، وسيشار اليه فيما بعد البنداري: سنا البرق الشامي.

(٣) نفس المصدر، ص٣٠٣.

(٤) ابن الجوزي:شمس الدين ابي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي: مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، ١٩٥١، ج٨، ق١، ص٣١٢ وسيشار اليه فيما بعد ابن الجوزي: مرآة الزمان.

(٥) المشطوب، لقبه والده وانما قيل له ذلك لشطبه في وجهه ابن خلكان، ابي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تح احسان عباس، دار صادر، بيروت،١٩٧٧، ج١، ص١٨٠، وسيشار اليه فيما بعد ابن خلكان وفيات الاعيان.

(٦) ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم: مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تح جمال الدين الشيال، دار احياء التراث القديم المطبعة الاميرية، القاهرة، ١٩٥٧، ج٢، ص٣٨١، وسيشار اليه فيما بعد ابن واصل: مفرج الكروب.

وذلك حين اجتاز نابلس من القدس في طريق عودته الى دمشق سنة ٥٨٨هـ/١١٨٥م فبثوا شكواهم الى السلطان واستغاثوا به فقال: ما لهولاء يتظلمون من المشطوب وهو راكب بين يديه فقال: يا علي لو كان هؤلاء يدعون لك حتى يسمع الله فكيف وهم يدعون عليك[1] . فنهاه صلاح الدين وزجره وازال ما اوقعه بالرعية، ويبدو ان صلاح الدين كان يدرك ان الظلم من ابن المشطوب قد وقع بسبب اقطاع كافة نابلس له الامر الذي جعله يتلافى ذلك بعد وفاة ابن المشطوب حيث اوقف السلطان بعده ثلث نابلس على مصالح القدس الشريف، واقطع الباقي لولده عماد الدين احمد بن سيف الدين المشطوب واميرين معه[2].

وذلك من اجل تعزيز خطة صلاح الدين في تدعيم وتقوية عروبة واسلامية بيت المقدس وقد يكون ذلك من اجل تخفيف النفوذ والسيادة المالية لمن يتسلم نابلس.

ويلاحظ بان نابلس قد دخلت في دائرة الصراع بين أبناء البيت الايوبي أثر وفاة صلاح الدين (٥٨٩هـ/١١٩٣م) إذ ان الصورة العامة لورثة صلاح الدين انهم قد اشتغلوا بالصراعات المحلية بينهم لاقتسام المملكة حيث كانت مصر من نصيب الملك العزيز عثمان، اما الشام فجعلت من نصيب الملك الافضل، في حين اصبحت حلب من نصيب الملك الظاهر غازي[3].

وتبعاً لهذا الانقسام غدت نابلس من ضمن مملكة الملك الافضل، وتلحق دمشق إدارياً. وقد اقر الافضل الامير عماد الدين بن المشطوب ومعه الاميرين على اقطاعهم كما كان ايام

---

(١) ابن الجوزي: مرآة الزمان،ج٨ ، ق١، ص٤٢٠.

(٢) الحنبلي: احمد بن ابراهيم، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، تح ناظم رشيد د.ن:د.م:١٩٧٩،ص١٧٩، وسيشار اليه فيما بعد الحنبلي: شفاء القلوب، ابن واصل:مفرّج الكروب، ج٢،ص٤١٠، ابن الوردي زين الدين عمر: تتمة المختصر في اخبار البشر، تح احمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٧٠، ج٢، ص١٥٩، وسيشار اليه فيما بعد ابن الوردي: تتمة المختصر.

(٣) ابن الاثير: ابي الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨، ج٩، ص٢٢٦-٢٢٧، وسيشار اليه فيما بعد ابن الاثير: الكامل.

الناصر صلاح الدين، وقد اشارت المصادر الى عدم مضبوطيتهم، ووقوع التدليس في عهدهم، حيث تلاعب هؤلاء الامراء بالثلث الموقوف على مصالح القدس(١).

ومن المعروف بأن الخلافات والمنازعات قد دبت بين الاخوة فحدث سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م خلاف بين الملك الافضل والملك العزيز عثمان بسبب طمع كل من الاخوين بملك الاخر.

وقد كان للامراء دور بارز في توسيع شقة الخلاف بين الاخوين، وهنا وتفادياً للصدام الذي كان سيقع بينهما، اشار الوزير ابن الاثير على الملك الافضل بأن يخلي القدس لاخيه الملك العزيز فكتب الافضل للعزيز في ذلك، وفوض اليه القدس وعمله. فسر العزيز بذلك وشكر لاخيه. فلما بلغ ذلك من هم في نابلس خافوا من محاسبة الملك العزيز لهم لكونهم قد مدوا ايديهم الى الاوقاف، ومن جملتها ثلث نابلس الموقوف على عمارة القدس ومصالحة فكتبوا الى الافضل وتمكنوا من ثنيه عن عزمه، فتغير الملك العزيز لذلك وتكدر باطنه(٢) . ولكن الخواطر هدأت بعد ان تدخل الملك العادل الذي تمكن من تقليص حدة التوتر، ونجح في عقد الصلح بين الاخوين وهو الصلح الذي تم على اساسه ضم نابلس والقدس الى الملك العزيز عثمان(٣). وبذلك غدت نابلس من ضمن املاك العزيز عثمان والذي اقدم في عام (٥٩١هـ/١١٩٤م) على اقطاعها لفارس الدين ميمون القصري شريطة اعداد سبعمائة فارس لمقاتلة الفرنج(٤) ، ولكن فترة حكم الملك العزيز عثمان لم تطل كثيراً اذ توفي في عام (٥٩٥هـ/١١٩٨م)(٥) ، لتنتقل مقاليد

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٥.

(٢) المصدر نفسه الجزء والصفحة.

(٣) المصدر نفسه الجزء، ص٣٠.

(٤) ابو المحاسن، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغربردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للطباعة، القاهرة، ج٦،ص١٣٧. وسيشار اليه فيما بعد أبو المحاسن: النجوم الزاهرة.

(٥) ابن الاثير: الكامل، ج٩،ص٢٤٣.

الامور من بعده الى عمه الملك العادل الذي نجح في بسط سيطرته على مصر، وتطلع بعد ذلك الى دمشق محاولاً انتزاعها من ابن اخيه وضمها الى أملاكه.

وفي هذه الفترة كان فارس الدين ميمون القصري مقيماً بنابلس، فلما بلغه اسقاط خطبه الملك المنصور بن العزيز، واستقلال الملك العادل بالملك عظم عليه ذلك ونفر منه، وانكره وكتب الى الملك العادل مكاتبات تنم عن عدم رضاه عن هذا التحول الذي حصل في مصر[1] ولم يكتف ميمون القصري. بمكاتبه الملك العادل بل كاتب الامراء الصلاحية (نسبة الى صلاح الدين) يحرضهم على العادل ولكنه لما لم يجد منهم استجابة للقيام ضد العادل[2] ، قرر الانضمام مع الملك الافضل في مواجهة الملك العادل الذي اعلن رغبته في السيطرة على دمشق[3].

وفي عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م خرج الملك العادل من القاهرة بعساكره لتحقيق رغبته في السيطرة على دمشق واستخلف على القاهرة ابنه الملك الكامل محمد، وسار العادل حتى نزل على نابلس، وقدم طائفة من عسكره، فساروا الى دمشق واستولوا عليها، مما استدعى قيام الملك الافضل والظاهر غازي بمحاصرة دمشق[4]. لكن الملك العادل نجح في اذكاء الخلاف بين الاخوين، الامر الذي ادى الى النزاع بينهما فقررا الرحيل عن دمشق في اول محرم من عام ٥٩٨هـ/١٢٠١م، وقد علم العادل بالنبأ فرحل الى دمشق واستقر بها، وكان الظاهر غازي قد

---

(١) حول هذه المكاتبات انظر النويري: شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب: نهاية الارب في فنون الادب، تح محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ج٢٩، ص١٩-٢٠، وسيشار اليه فيما بعد النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص١٩-٢٠، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١١٧-١١٨.

(٢) المقريزي، احمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح محمد مصطفى زياده. مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٧، ج١، ق١، ص١٥٤، وسيشار اليه فيما بعد المقريزي: السلوك.

(٣) ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص٢٤٥.

(٤) ابن سباط: حمزة بن احمد بن عمر: صدق الاخبار تاريخ ابن سباط تح عمر عبد السلام التدمري، جروس برس، لبنان ط٢، ١٩٩٣، ج٩، ص٢٤٥، وسيشار اليه فيما بعد ابن سباط: صدق الأخبار.

عاد الى حلب ومعه جماعة من الامراء من بينهم الامير فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس الذي اكرمه الظاهر غازي بأن اقطعه عزاز[1].

اذاً يبدو لنا ان ابناء السلطان صلاح الدين لم يستطيعوا ملء الفراغ الذي احدثه رحيل والدهم وبالتالي لم يستطيعوا النهوض بالمشروع الكبير الذي نهض به والدهم، وهو تحقيق الاتحاد لمواجهة خطر الفرنجة، الذي استهدف النيل من البلاد الاسلامية، وكانت الظروف السياسية المحدقة بالامة تتطلب رجلاً ذا مواصفات سياسية وعسكرية فذة، تمكنه من اعادة تحقيق الوحدة للامة ومن ثم مواجهة الاخطار الفرنجية المحدقة بالبلاد، ويبدو ان هذه الصفات قد تجمعت في شخص الملك العادل الذي كان موضع ثقة صلاح الدين في كثير من المواقف والظروف.

ان مجمل الاحداث تجعلنا نميل الى ان العادل نجح في اعادة بناء الوحدة بين مصر والشام بعد ان كادت تعصف بها الخلافات التي دبت بين ابناء السلطان الناصر صلاح الدين والتي تعود في معظمها لطبيعة نظام الاقطاع العسكري الذي ساد في الدولة الايوبية، ذلك ان صلاح الدين ما ان اكمل بناء دولته ووحد اجزاءها حتى بادر الى توزيعها على شكل اقطاعات بين ابنائه واخوته وامرائه وفي رأينا ان ما اقدم عليه صلاح الدين من توزيع لمملكته بين ابنائه كان له ما لا يؤيده في مجريات الاحداث السياسية، ذلك ان هذا النظام كان مسؤولاً عما انتهت اليه الدولة من اعادة تمزيق بعد ان وحدها لانه من شأنه الحيلولة دون بقاء المقاتلين تحت السلاح لمدة طويلة وخاصة في مواسم الفلاحة وجني المحاصيل وقد بدت عيوب هذا النظام واضحة لصلاح الدين في حياته وخاصة اثناء حصاره لعكا فقد بات واضحاً ان صلاح الدين قد فقد سيطرته على اقطاعاته فأخذ كبار الامراء وقادة الجند يضجرون من طول مدة الحصار على عكا ويبدو ان قوة شخصية صلاح الدين وما حققه من انتصارات على الفرنجة قد حافظت على وحدة

---

(1) عزاز. هي بليدة فيها قلعة وبها رستاق شمالي حلب بينهما يوم وهي طيبة الهواء. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص ١١٨.

دولته، ولكن بعد وفاته استقل ابناؤه وكبار رجال دولته باقطاعاتهم واصبحت الدولة مكونه من عدة ممالك تنازعت فيما بينها وقد نجح العادل في توحيد مصر والشام ولكنه لم يستفد من تجربة صلاح الدين و لم يعمل على تدارك اخطائه لانه قام فيما بعد بتقسيم الدولة بين ابنائه ليدخل الاخوة من جديد في الصراع، وهو الصراع الذي سيستمر حتى نهاية الدولة على يد المماليك.

أما فيما يتعلق بنابلس في هذه المرحلة، فقد غدت من املاك الملك العادل، وقد حدث في هذه الاثناء زلزلة مدمره امتدت الى الشام والساحل وهدمت مدينة نابلس و لم يبق بها جدار قائم الا حارة السامرة، وقد قتل في هذه الزلزلة تحت الهدم جمع كثير من سكان نابلس(١).

ومن ناحية اخرى فاننا لا نعثر عما يشير الى قيام الملك العادل باقطاع نابلس لاي من الامراء المحيطين به الا قيام العادل بمنح فلسطين لابنه الملك المعظم عيسى، وبطبيعة الحال وكجزء من أرض فلسطين اصبحت نابلس من أملاك المعظم عيسى.

وقد لعبت نابلس في الفترة الأيوبية دوراً لا يستهان به في التصدي للفرنجة ومقاومتهم. شأنها في ذلك شأن بقية المناطق الفلسطينية ففي عام (٦٠٧هـ/١٢١٠م) تحركت جموع اسلامية من دمشق الى نابلس حيث كان يقيم الملك المعظم عيسى، بهدف التحرك باتجاه مدينة عكا لمهاجمة معاقل الفرنجة فيها، وقد عمل الملك المعظم عيسى عند وصول هذه القوات على تجهيزها واعدادها وبعد ذلك سار هو ومن معه نحو الفرنجة فقتلوا خلقاً وخربوا اماكن كثيرة وعادوا سالمين(٢).

(١) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٢٨.

(٢) ابن كثير الدمشقي: البداية والنهاية، تح ابو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ ج١٣، ص٦٤. وسيشار اليه فيما بعد إبن كثير، البداية والنهاية.

وفي عام (٦١٤هـ/١٢١٧م) تتابعت وصول الامدادات الفرنجية الى ساحل عكا قادمة من أوروبا بغية الاستيلاء على القدس الشريف واسترداد البلاد الساحلية ولما علم الملك العادل بذلك توجه هو وقواته لملاقاة الفرنجة فوصل الى نابلس ثم الى بيسان وتحركت القوات الفرنجية من عكا باتجاه بيسان بقصد ملاقاته فخاف العادل ان لقيهم ولم تتكامل عنده العساكر الاسلامية ان يكسر فلا تقوم للاسلام بعد ذلك قائمة[1] فتحرك الى دمشق وطلب ان تتجمع عنده العساكر[2] وطلب من ابنه الملك المعظم عيسى البقاء مع فرقة من الجند في نابلس لمنع الفرنجة من الاستيلاء على بيت المقدس، فاستعد الملك المعظم لذلك وتوجه مع قواته الى عقبة اللبن خوفاً على القدس[3] ويبدو لنا ان الملك المعظم قد بقي في نابلس ولم يغادرها بعد الهجوم الفرنجي بدليل انه عندما توفي الملك العادل سيف الدين في ١٧ جمادي الاخرى سنة ٦١٥هـ/٣١ آب ١٢١٨م كان المعظم عيسى مقيماً في نابلس[4] فارسل اليه خبر وفاة والده في عالقين فانتقل الى هناك وقام بنقل جثمان والده الى دمشق حيث دفن هناك.

وفي عام (٦١٦هـ/١٢١٩م) استولى الفرنجة على دمياط وقد احدث ذلك دوياً هائلاً في العالم الاسلامي، وقد بادر الملك المعظم عيسى للقيام بواجبه بتجهيز قواته وبمساعدة القوات

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣،ص٢٥٣. الدواداري، ابي بكر عبدالله بن ايبك: كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تح سعيد عاشور، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ج٧، ص١٨٧، وسيشار اليه فيما بعد ايبك: كنز الدرر. ابن خلدون:تاريخ ابن خلدون المسمى: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢، م٥، ق٤، ص ٤٠٩، وسيشار اليه فيما بعد ابن خلدون: العبر.

(٢) أبي شامة، شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن اسماعيل: تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تح محمد زاهر الكوثري، ط٢، دار الجيل بيروت ١٩٧٤ ص١٠٢، وسيشار اليه فيما بعد أبو شامة: تراجم القرنين. اشارات بعض المصادر بخصوص هذا الصراع الى قيام الفرنج سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م بنقض الهدنة التي كانت معقودة بين الطرفين وذلك عام ٦٠١هـ/١٢٠٤م أنظر بخصوص ذلك أبي شامة تراجم رجال القرنين، ص ١٠٢، أبي الفضائل، محمد بن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري، تح أبو العيد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٨١، ص٧٣، وسيشار اليه فيما بعد أبو الفضائل: التاريخ المنصوري، المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص١٨٩.

(٣) ابي شامة: تراجم رجال القرنين،ص١٠٢، المقريزي: السلوك،ج١،ق١،ص١٨٧. ابن واصل: مفرج الكروب،ج٣،ص٢٥٤.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب،ج٣،ص٢٧٥، ابن خلدون: العبر، م٥، ق٤، ص٤١١، ويؤيد النويري ما ذهبنا اليه حيث يشير الى لقاء تم بين الفرنجة والملك المعظم عيسى على القيمون وانتصار الملك المعظم عيسى في هذا اللقاء واقام بنابلس فكتب اليه كريم الدين الخلاطي خبر وفاة والده، النويري: نهاية الارب،ج٢٩،ص٨٢-٨٣.

الدمشقية في نابلس للرد على هذا الاعتداء الذي تعرضت له دمياط(١) كذلك اعتاد المعظم عيسى اثناء تواجده في نابلس على القيام بشن الغارات الاعتراضية والمتقطعة على القوات الفرنجية ويسجل بانه الملك المعظم كان نازلاً مره بنابلس وفي معسكره يومئذ بهاء الدين نصير بن محمد القيسراني فبعث الملك المعظم جماعة من عسكره فاغاروا على مدينة قيسارية من الساحل وكانت يومئذ بيد الفرنج فاسروا وقتلوا وعادوا مظفرين منصورين وجلبوا معهم ثماراً من قيسارية اترج كثير وليمون، فقام الملك المعظم باهداء جزء من هذه الثمار الى القيسراني(٢).

لقد حظيت نابلس خلال عهد الملك المعظم عيسى باهتمامه الكبير، ومن أوجه هذا الأهتمام بأنه اعتبرها خط دفاع متميز لمحاربة الفرنج والدفاع عن القدس ففي سنة ٦٢٤/١٢٢٧م جهز العساكر الى نابلس لحماية القدس من اطماع الأمبراطور فردريك وانفق على هذه العساكر ٩٠٠ ألف درهم(٣) . فاقام بها فترات متعدده الى حين وفاته (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) ويبدو لنا ان المعظم عيسى كان يقوم بنفسه بتعين الولاه على نابلس على الرغم من اغفال المصادر الاسلامية لاسماء هؤلاء الولاه، ومع ذلك لدينا اشارة تحدثت عن قيام الملك المعظم عيسى بعرض نابلس على سنقر الحلبي الصلاحي ت(٦٢٠هـ/١٢٢٣م)(٤) لكنه عاد واعرض عنه و لم ينصفه(٥) وبعد وفاة الملك المعظم عيسى خلفه على الحكم ابنه الملك الناصر داود وهو شخصية لم تتوافر له الحنكة والخبرة السياسية الكافية لادارة شؤون الحكم في فترة امتازت بالقلق وعدم الاستقرار وسرعة التغير والتبدل في الاحداث مما سهل الامر على عمه الملك الكامل محمد حاكم مصر في انتزاع دمشق منه على ان تكون للملك الاشرف وما معها

---

(١) النويري: نهاية الارب، ج٢٩،ص٩٥-٩٦، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦،ص٢٣٨-٢٣٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤،ص٢١٧.

(٣) يوسف غوانمة: إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان ط٢، ١٩٨٢، ص٢١٤، نقلاً عن مخطوط ابن رافع السلامي مختصر التواريخ لوحة ٣٢٧.

(٤) سنقر الحلبي الصلاحي الامير مبارز الدين كان من كبار رجالات الدولة بحلب ثم انتقل عنها الى ماردين.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١،ص٢٢٦، الصفدي: الوافي بالوفيات ج١٥،ص٤٨٨. ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج١،ص٣١٩.

الى عقبة فيق* (١) وقرر للناصر الكرك، والشوبك والصلت والبلقاء، والاغوار، ونابلس واعمال القدس(٢) فبقيت نابلس والحالة هذه ضمن املاك الناصر داود بن المعظم عيسى وفي سنة ١٢٢٨/٦٢٥م خرج الكامل من مصر فنزل في غزة ثم في تل العجول واثناء ذلك تمكن من انتزاع نابلس والقدس والخليل وغيرها من الأعمال من ابن اخيه الناصر داود ثم سار الى نابلس واقام في دار الملك المعظم عيسى ولقد تزامن ذلك مع وصول الأمبراطور فردريك الثاني على رأس قواته الى مكاني ٥شوال (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) حيث بدأت مفاوضات بين الطرفين ورتب الولاه من قبله في نابلس والخليل وبيت المقدس وغيرها من الاعمال التابعة للناصر داود(٣) واستمرت لفترة طويلة حيث انتهت بتوقيع الاتفاقية في تل العجول بظاهر غزه والتي حصل الفرنج بمقتضاها على بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وبقي المسجد الاقصى وقبة الصخرة بايدي المسلمين كما حصل الفرنج ايضاً على مدينتي صيدا وتبنين وجميع القرى الواقعة على طول الطريق بين يافا وعكا والقدس اضافة الى اللد والرملة بينما احتفظ المسلمون بنابلس والخليل وطبرية(٤) وبقيت نابلس وقراها تحت سيطرة الكامل محمد حتى تنازل الناصر داوود عن دمشق والشوبك الى عمه الكامل الذي رد اليه بلاده باستثناء دمشق والشوبك وبيت المقدس ثم قام الناصر داوود بتأسيس امارة الكرك الايوبية واصبحت نابلس والقدس والخليل ومنطقة شرقي الاردن من ضمن هذه الامارة(٥) و لم تمض بضعة اسابيع على توقيع المعاهدة ورحيل فردريك عن القدس حتى دبر ائمة المسلمين والزهاد في نابلس والخليل في عام (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) هجوماً على بيت المقدس فهرب المسيحيون على اختلاف نحلهم الى برج داود للاحتماء به وقاموا بطلب النجدة من عكا و لم يجبر المغيرين على العودة سوى قدوم نائبي الامبراطور باليان سيد

* عقبة فيق: المكان الذي ينحدر فيها الى غور الأردن وهو يشرف على طبريا وبحيرتها، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٨٦.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٤،ص٢٣٠-٢٣١. المقريزي: السلوك،ج١،ق١،ص٢٢٦.

(٢) الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني ايوب،ص٣٤٦-٣٤٧.

(٣) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج٩،ص٣٧٧، ابن خلدون: العبر، م٥، ق٤، ص ٤١٨.

(٤) ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص٣٧٨، ابن لقلق كيرلس الثالث، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، نشر انطون خاطر وازلود باورمستر، جمعية الاثار القبطية، القاهرة، ١٩٧٤، م٤، ج١، ص٥١، وسيشار اليه فيما بعد ابن لقلق: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية.

(٥) يوسف غوانمة: امارة الكرك الايوبية، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢ص٢٣١، وسيشار اليه فيما بعد غوانمة، امارة الكرك الايوبية.

صيدا، وجارينه على رأس جيش وانكر الامراء المسلمون صلتهم بهذا الغـاره(١) ولا شـك ان مـا قام به المسلمون من اغارة انما يعبر عن الرفض الاسلامي لتلك المعاهدة واصرارهم على مقاومـة الفرنجة المحتلين لبلادهم. والظاهر ان احوال نابلس قد اتسمت بالهدوء بعد هـذه الغـارة وتبعيتهـا لامـارة الكـرك اذ لم تتعرض لأي هجـوم فرنجي وبقيـت الأحـداث تسير بانتظـام حتـى سـنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) حيث توفي الكامل محمد وتسلطن على مصر من بعده ابنه العادل الثاني وقد حاول الناصر داود استغلال هذه الفرصة لاسترداد ما كان قد اقتطعـه منـه عمـه الكـامل ولكـن الجواد مظفر الدين يونس نائب العادل في دمشق خرج له وجرت بينهما معركة في موقـع ظهـر الحمار بين نابلس وجنين في ١٤ ذي الحجة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) وانتهـت بهزيمـة قاسية للنـاصر داود في حين قوى الجواد يونس بنتيجة هـذه المعركـة حيـث اسـتولى علـى جميـع خزائـن الملـك الناصر(٢) ولكن الملك العادل الثاني تخوف من الجواد فأمر برد ما اخـذه مـن الملـك النـاصر داود فاعاد الجواد للناصر ما اخذه منه(٣) وبالتالي عادت نابلس مره اخرى للانضمام الى امـارة الكـرك الايوبية بزعامة الملك الناصر داود.

و لم تلبث بلاد الشام ان غرقت من جديد في النزاع بين ابناء البيت. الايوبي وذلك حينما اعلن الملك الصالح نجم الدين ايوب بعد استيلائه على دمشق من اخيه العادل الثاني عن رغبته في الاستيلاء على السلطة في مصر مستعيناً بعمـه الصـالح عمـاد الديـن اسمـاعيل حـاكم بعلبـك وفي طريقه الى مصر استولى نجم الدين ايـوب علـى نـابلس ومكـث بهـا منتظراً عمـه الصـالح الا ان الصالح اسماعيل غدر به و لم يأت بل قام بالاستيلاء علـى دمشـق واعلـن الطاعـة للملـك العـادل الثاني(٤) ولما علم الصالح نجم الدين بذلك وهو مقيم بنابلس توجه علـى الفـور الى دمشـق مخلفاً نابلس وراءه واثناء مسيره لدمشق تخلى عنه معظم جنوده وذلك بسـبب خوفهـم علـى اولادهـم

(١) Benvenisti, the crusaders in the Holy land, P. 48. ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٤٠-٣٤١.

(٢) ابن سباط: صدق الأخبار، ج١، ص٣١٦، ابو الفدا، عماد الدين اسماعيل بن محمد بـن عمـر: المختصـر في أخبـار البشـر، دار المعرفـة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت ج٣، ص١٦٢-١٦٣. النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٢٣١.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص١٩٣.

(٤) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٢٥٨-٢٥٩، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٠٦.

واهليهم بدمشق وكان الفساد قد استشرى فيها فتركوا الصالح ايوب وساروا الى دمشق وبقي الصالح في مماليكه وغلمانه وبرفقته جاريته شجرة الدر ام خليل وهنا قرر نجم الدين العوده الى نابلس فطمع فيه اهل الغور والقبائل، وكان مقدمهم شيخاً جاهلاً يقال له مسبل من أهل بيسان قد سفك الدماء فتقاتل عسكر الصالح معه حتى كسروه(١) ثم تابعوا مسيرهم الى نابلس.

وفي هذه الفترة عاد الناصر داود الى الكرك حيث اخبره نائبه الوزيري في نابلس بما حدث للملك الصالح ايوب(٢) فما كان من الناصر الا ان ارسل عساكر الى هناك حيث قاموا بالقاء القبض على الصالح ايوب وارسلوه الى الكرك حيث سجن هناك(٣) ولكن الملك العادل الثاني لم يقنع بسجن اخيه فبعث الامير علاء الدين بن النابلسي الى الناصر داود طالباً منه ان يبعث اليه بأخيه الصالح(٤).

الا ان الناصر داود رفض طلب الملك العادل اذ كان يطمع ومن خلال هذا الرفض ان يساوم الملك العادل على اخيه الملك الصالح بغية اعطائه دمشق التي انتزعت منه سابقاً(٥).

الا ان سجن الملك الصالح ايوب لم يطل لأكثر من سبعة شهور حيث افرج عنه الملك الناصر(٦) وذلك بسبب الخلاف الذي وقع بين الناصر داود والعادل الثاني حيث قاما بعد ذلك وسارا الى قبة الصخرة، وتحالفا بها على ان تكون ديار مصر للصالح ايوب ودمشق والبلاد

---

(١) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة،ج٦،ص٣٠٧، الدواداري: زبدة الفكرة،مخطوط، ج١٠، لوحة ٢٧، مخطوطة مصورة في الجامعة الاردنية، شريط رقم ٢٠.

(٢) المصدر نفسه والجزء، ص٣٠٧.

(٣) ابن ايبك: كنز الدرر،ج٧،ص٣٣٧.

(٤) المقريزي: السلوك،ج١ ق٢،ص٢٩٠. ابو المحاسن: النجوم الزاهرة،ج٦،ص٣١٠.

(٥) المقريزي: السلوك،ج١ ق٢، ص٢٩٠.

(٦) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد: وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، تح احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ج٥، ص٤٨، وسيشار اليه فيما بعد ابن خلكان: وفيات الأعيان.

الشرقية للناصر داود(١) واقاما بعد ذلك في نابلس. واثناء اقامتهما وصلت اليهما الرسل تستدعي الملك الصالح للقدوم الى مصر لتسلم مقاليد الحكم بها بعد ان قبض جماعة من المماليك الاشرفية ومقدمهم ايبك الأسمر على العادل الثاني وجعلوه في خيمة صغيرة وعليها من يحفظه(٢).

ولما تأكد الصالح ايوب والناصر داود من الاخبار الواردة اليهم تركا مدينة نابلس، وتوجها الى مصر حيث وصلاها في ذي القعدة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م ودخل الصالح الى قلعة الجبل، وزينت له البلاد، ولما استقر الصالح في ملك مصر وبصحبته الناصر داود حصل عند كل واحد منهما استشعار من صاحبه وخاف الناصر داود ان يقبض الصالح عليه فطلب اذناً بالمغادرة متوجهاً الى بلاد الكرك(٣).

على ان المنازعات لم تلبث ان نشبت من جديد بين الفرنجة والمسلمين، اذ ورد في تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية "ان الفرنج صاروا يخرجون من بيت لحم وغيرها ويتعقبون بالناس يقتلونهم في الطريق ويستبيحون اموالهم، فبلغ الملك الناصر بن المعظم صاحب الكرك ونابلس وجبل الخليل وبيسان ذلك فسرى على بيت لحم، وقتل كل من بها من فرنجي ونصراني واخذ الأموال وسبى الذراري وكانت ايام فتن ومخاوف"(٤) وقد اثار ما فعله الناصر داود الداوية المقيمين في يافا فما كان منهم الا ان خرجوا من يافا وجاءوا الى نابلس وقتلوا كل من كان بها من مسلمين ونصارى وهدموا الجامع الى الأرض، وحرقوا الأشجار وأخربوا الديار وحكى انهم لما احاطوا بالناس وجمعوهم قالوا: من كان نصرانياً ينعزل حتى نخلصه ففرح النصارى بذلك وامتازوا من المسلمين فلما صاروا عزله عادوا اليهم فقتلوهم اجمعين، وأما المسلمون فأنهم قتلوا منهم واسروا بعضهم وكان القتل يعم النسوان والولدان والصغار والكبار واقاموا بها ثلاثة ايام،

(١) ابو الفداء: المختصر، ج٣،ص١٦٦.

(٢) ابن ايبك: كنز الدرر، ج٧،ص٢٣٨. ابو الفداء: المختصر، ج٣،ص١٦٦.

(٣) ابو الفداء:المختصر، ج٣،ص١٦٦.

(٤) ابن لقلق، كيرلس الثالث: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، نشرة انطوان خاطر وازولد بورمستر، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، القاهرة ١٩٧٤، م٤، ج٢، ص١١٨، وسيشار اليه فيما بعد ابن لقلق: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية.

ثم عادوا بالسبي والغنائم وكانت فتنة ما روى اشد منها[1] وعندما بلغ الناصر داود خبرهم، وجه اليهم قصده وشهر عليهم من عزمه سيفا ففروا فرار الليل من وضح النهار، ولم يكن لهم دون الناصر من انصار فتعلقوا بحصونهم القريبة ولاذوا بها من وقع سهامة المصيبة[2] وقد ارتاع الناصر ولما شاهده من اثار القتل والتدمير الذي اصاب المدينة على يد فرسان الداوية، وقد عبر عن مشاعره في رسالة بعث بها للشيخ عز الدين بن عبد السلام واصفاً فيها فداحه الخسائر التي لحقت بنابلس واهلها من جراء الهجوم وما ارتكبه الداوية من جرائم ضد السكان[3] وجاء رد الفعل الاسلامي على هذه المذبحة بقيام قوات الملك الصالح نجم الدين ايوب بالخروج الى الشام في الفي فارس بقيادة شمس الدين سراسنقر حيث قامت هذه القوات بمحاصرة يافا لفترة لكنها عادت دون تحقيق شيء[4] ورغم ما تعرضت له نابلس من ويلات على يد الفرسان الداوية الا ان المنازعات بين امراء البيت الايوبي استمرت واتسعت شقتها اذ ما لبثت العلاقات ان ساءت ما بين الناصر داود والصالح ايوب مما حدا بالناصر داود الى أحياء التحالف مع الصالح اسماعيل من اجل محاربة الصالح ايوب، لا بل قاما وتحالفا مع الفرنجة لمحاربة الصالح ايوب وانتزاع مصر منه مقابل تسليم الفرنجة كافة الاعمال الساحلية[5] ولقد لعبت نابلس في هذا الصراع دوراً هاماً حيث كانت المكان الذي تجمعت فيه القوات المساندة للملك الناصر في حربه ضد الصالح ايوب والتي جعل على قيادتها كل من سنقر الحلبي ونائبة الوزيري متحالفة مع كل من الداوية والاسبتارية وامراء الفرنج[6].

---

(١) نفس المصدر والجزء، ص١٣١.

(٢) مجهول: الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية، مخطوط، لوحة ١١٨ نسخة مصورة لدى الباحثة عن مخطوط المتحف البريطاني، لندن رقم ٣٠٢٥.

(٣) انظر نص الرسالة في الملحق.

(٤) ابن لقلق: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، م٤، ج٢، ص١٣١.

(٥) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٣٠٥، المقريزي: السلوك، ج١ ق٢، ص٣١٥.

(٦) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٣٠٥.

وقد ادى هذا التحالف الى قيام الصالح ايوب بحشد قواته بقيادة ركن الدين بيبرس الكخي احد مماليكه الذين كانوا معه في حبسه بالكرك متحالفاً مع الخوارزميين[1]، وقد التقا الطرفان عند غزه وتمكنت القوات المصرية والخوارزمية من هزيمة التحالف الفرنجي الشامي شر هزيمة[2] واستولى الصالح ايوب على غزة والسواحل والقدس[3] وبذلك تكون نابلس قد انتقلت الى حكم الصالح ايوب في مصر وهنا قام بيبرس بفرض سيطرته على نابلس والخليل وبيت جبريل والسواحل والاغوار و لم يبق بيد الناصر سوى الكرك والبلقاء والصلت وعجلون[4] ولكن هذه التبعية لم تدم كثيراً اذ لما رأى الخوارزمية تبدل نية السلطان الصالح عما كان قد وعدهم به من اقطاعات يملكهم اياها تغيرت نياتهم عليه واتفقوا على الخروج عن طاعته لذلك كاتبوا الامير ركن الدين بيبرس واستمالوه فمال اليهم، فكاتبوا الناصر داود صاحب الكرك فوافقهم ونزل اليهم واجتمع بهم ثم عادوا الى الكرك واستطاعوا الاستيلاء على نابلس والقدس والخليل وبيت جبرين والاغوار[5]، واعادوها الى خطيره امارة الكرك الأيوبية.

وقد عاثت جموع الخوارزمية بنابلس والساحل فساداً كبيراً وبقيت بها مما حدا بالملك الصالح الى اعادة استماله مملوكة ركن الدين بيبرس بواسطة القاضي نجم الدين محمد بن سالم

---

(1) الدولة الخوارزمية:- ينتمي الخوارزمية الى محمد بن انوش تكين وكان والده مملوكاً لاحد امراء البيت السلجوقي وقد رباه والده فاحسن تأديبه فنشأ عارفاً واديباً واشتهر بالكفاية وحسن التدبير فعلى شأنه بين كبار السلاجقة وتدرج في المناصب العليا في الدولة حتى اسند اليه حكم مدينة خوارزم عام ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، وقد كان لضعف الدولة السلجوقية عقب وفاة السلطان ملكشاه ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، اثر كبير في بزوغ نجم الدولة الخوارزمية وظهورها كدولة مستقلة على انقاض الدولة السلجوقية وقد حاولت الدولة الخوارزمية بشتى الوسائل ان تقوي نفوذها في الشرق الادنى فوجدت في صراعات البيت الايوبي فرصة طيبة لتقوية نفوذهم على حساب امراء هذا البيت.

اسامة زكي زيد: الخوارزمية ودروهم في الصراع الصليبي الاسلامي في عصر بني ايوب، مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية م٣، مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٨٤. ص٢٤٦-٢٤٩. وسيشار اليه فيما بعد اسامة زيد: الخوارزمية.

(2) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٣٠٥، المقريزي: السلوك، ج١ ق٢، ص٣١٦-٣١٧.

(3) ابو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٣.

(4) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٨.

(5) نفس المصدر والجزء والقسم، ص٣٢١-٣٢٢.

النابلسي المعروف بابن قاضي نابلس فاستطاع ان يخدعه ويمنيه حتى فارق الخوارزمية وعاد الى الديار المصرية فاعتقل بقلعة الجبل وكان آخر العهد به[1].

وتمكنت قوات الصالح من قصد غزه ومن ثم نابلس واعادت نابلس الى سيطرته بعد ان فرقت جموع الخوارزميين منها الى الصلت ثم توجه اليهم فقاتلهم وكسرهم وبدد شملهم وكان الملك الناصر معهم فسار الى الكرك وتحصن بها[2] واستمرت نابلس على تبيعيتها للصالح نجم الدين ايوب حتى وفاته عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م[3] حيث خلفه على الحكم ابنه المعظم تورانشاه الذي قام عليه المماليك بانقلاب ونجحوا في قتله سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م[4] وبموته كانت بداية النهاية للدولة الايوبية.

## نابلس في ظل الصراع الايوبي - المملوكي

وفي هذه الحقبة دخلت نابلس في دائرة الصراع الايوبي المملوكي وهو الصراع الناجم عن التنافس على الحكم ما بين الايوبين الرافضين لسيطرة مماليكهم بالامس وما بين المماليك الطامحين في تأسيس دولة خاصة بهم.

وتعود بداية هذا الصراع الى (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) وقت مقتل تورانشاه وسيطرة المماليك على السلطة في مصر فجاء رد الفعل من البيت الايوبي عنيفاً وبالتحديد من قبل الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب الذي استولى على دمشق[5] وكافة بلاد الشام بما في ذلك نابلس[6] وقد استاء الناصر يوسف من سيطرة المماليك على مقاليد السلطة في مصر فقرر إعادة

---

(١) المصدر نفسه والجزء والقسم،ص٣٢٣.

(٢) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٣٢١؛ المقريزي: السلوك،ج١ ق٢،ص ٣٣٩.

(٣) نفس المصدر،ص٣٢٥.

(٤) المقريزي: السلوك،ج١ ق٢،ص٣٦٠

(٥) ابو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٨٣.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨١.

الامور الى نصابها وذلك بان سار بعساكره الى مصر الا ان العساكر المملوكية سارعت الى لقائه ودارت المواجهة ما بين العسكرين بالقرب من العباسة وتمكنت القوات المملوكية من حسم النتيجة لصالحها والحاق الهزيمة بالشاميين(١).

ثم عزز المماليك تفوقهم بارسال قوة في سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م) ارسلها المعز ايبك التركماني بقيادة الامير فارس الدين اقطاي حيث تمكنت هذه القوة من بسط سيطرتها على الساحل ونابلس الى نهر الاردن(٢) ولكن العساكر الشامية لم تستسلم لما اصابها في المرة الاولى وبادرت الى دفع القوات المغيرة واستطاعت قهر الجيش المصري(٣) وبذلك عادت نابلس الى السيطرة الايوبية.

وبقي الصراع مشتعلاً بين الطرفين فترة طويلة من الوقت حتى سارع الخليفة العباسي رغبة منه في حقن دماء المسلمين الى عقد الصلح ما بين الايوبين والمماليك وهو الصلح الذي تولى اتمامه مبعوث الخليفة الشيخ نجم الدين البادرائي، وتم بموجبه الاتفاق على ان يكون للمصريين الى الاردن وللناصر ما وراء ذلك بمعنى ان يدخل للمصريين غزه والقدس ونابلس والساحل كله(٤).

الا ان هذا الصلح الذي اقره الطرفان المتنازعان لم يستمر لفترة طويلة اذ حدث ونتيجة لتدهور الاحوال في مصر بعد ان اقدم المعزايبك على قتل فارس الدين اقطاي زعيم المماليك

---

(١) ابو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٨٤.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨١.

(٣) الذهبي: شمس الدين ابي عبدالله :كتاب دول الإسلام، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر اباد، ط١، ١٣٣٧هـ، ج٢، ص١١٩، وسيشار اليه فيما بعد الذهبي: دول الاسلام.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢، ص٣٨٥ ابن سباط: صدق الأخبار، ج١ص٣٦٢. ابو الفداء: المختصر، ج٣ ص١٩٠. ابن خلدون العبر، م٥، ق٤، ص٤٤٥.

البحرية[1] الى حدوث انقسامات خطيرة داخل مصر؛ وعلى اثر هذه الانقسامات قام انصار فارس الدين اقطاي ومنهم ركن الدين بيبرس البندقداري، وقلاوون الالفي وسنقر الاشقر بالتوجه الى الشام حيث نزلوا على غزه، وهناك اتصلوا بالسلطان الناصر صاحب الشام وسألوه ان يأذن لهم بالوصول اليه، فاجابهم الى ذلك واقاموا عنده يحرضونه على قصد الديار المصرية فكان ان اقطعهم الاقطاعات ووثق بهم وكان المعز قد كتب اليه وأوهمه فطلب الملك الناصر من المعزايبك القدس وجميع البلاد الساحلية التي اخذها منه عند حدوث الصلح بحكم انها كانت جارية في اقطاع البحرية، وانهم قد انتقلوا اليه واستقروا في خدمته فاعادها الملك المعز اليه[2] وكانت نابلس في هذه الفترة اقطاعاً للامير بيبرس النبدقداري[3].

وهنا نلاحظ ان نابلس اصبحت هدفاً لاطماع الايوبيين في بلاد الشام والمماليك في مصر فتارة تتبع الايوبيين وتارة تتبع المماليك و لم يقف الامر عند هذا الحد بل ان نابلس غدت هدفاً لاطماع الفرنجة بحيث سعى الملك لويس التاسع بعد هزيمته في مصر واقامته في فلسطين للسيطرة على نابلس لكي يهدد بها بيت المقدس باعتبارها خط الدفاع الاول عنها لوقوعها على الطريق الموصل اليها ولقربها منها وبادر لويس الى عقد اجتماع في (٦٥١هـ/١٢٥٣م) مع فرسان الداوية والاسبتارية وبارونات البلاد اعلمهم فيه برغبته في القيام بحمله لاخذ مدينة نابلس وقد اجمع الداوية والاسبتارية وبارونات البلاد على تحبيذ فكرته في الاستيلاء على المدينة لكنهم رأوا الا يذهب هو بشخصه حتى لا تضيع الاراضي المقدسة باجمعها ان حدث له حادث، فقال لهم:

---

(١) المماليك البحرية: هم الجماعة الذين اشتراهم السلطان نجم الدين أيوب بديار مصر نظراً لما مر به من حوادث وتفرق الأكراد وغيرهم من العسكر عنه حتى لم يبقى معه سوى مماليكه، فلما استولى على مصر أكثر من شرائهم وجعلهم معظم عسكره وقبض على باقي الأفراد الذين كانوا مع أبيه وأخيه واعطى مماليكه الامريات فصاروا بطانته المحيطين بدهليزه وسماهم البحرية لسكناهم معه في قلعة الروضة على نهر النيل، المقريزي: السلوك، ج١ ق٢، ص٣٣٩-٣٤٠.

(٢) النويري: نهاية الارب، ج٢٩، ص٤٣٣-٤٣٤. ابو المحاسن: النجوم الزاهرة،ج٧، ص٤٤.

(٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٩٩.

انه لا يجوز له الذهاب دون موافقتهم ومن ثم بقي هذا المشروع معطلاً لان بارونات البلد لم يوافقوا على ذهابه بنفسه(١).

على اية حال بقي المماليك البحرية في خدمة الملك الناصر حتى سنة (٦٥٥هـ/١٢٦٦م) حيث حصلت الوحشة بين الطرفين فخاف كل منهما من الاخر لذلك قرر المماليك البحرية مفارقة دمشق، ولما وصلوا نابلس اتفقوا على التوجه الى الملك المغيث عمر في الكرك فتوجه اليه كل من بيبرس وقلاوون وسيف الدين بلبان الرشيدي(٢).

وقد استمرت اقامة هؤلاء البحرية حتى سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٨م) حينما حصلت منافره بين بيبرس والمغيث دفعت بالامير بيبرس الى مفارقة المغيث والعودة ثانية الى الناصر يوسف الذي قام باقطاعه نصف نابلس وجنين واعمالها بمائه وعشرون فارساً(٣) وبقي مقيم عنده حتى حصل من الناصر ما اوجب على بيبرس الانقلاب عليه اذ تخاذل الناصر يوسف في التصدي للهجمات التتارية على البلاد الاسلامية مما دفع بيبرس الى تركه والتوجه الى السلطان قطز في مصر(٤) وقد استقبله قطز وانزله في دار الوزارة واقطعه قليوب واعمالها(٥) اما الملك الناصر فبعد التخاذل الذي ابداه في مواجهة التتار احتار في اين يتوجه فترك دمشق وتوجهه هو ومن معه الى جهة الديار المصرية وبصحبته الملك المنصور صاحب حماه، واثناء ترحالة مر بنابلس واقام بها اياماً ثم

---

(١) جوانفيل: مذكرات جوانفيل، القدس لوسي حياته وحملاته على مصر والشام تح، حسن حبشي، دار المعرفة، مصر، ط١ ١٩٦٨، ص٢٤٧. وسيشار اليه فيما بعد جوانفيل، مذكرات.

(٢) الكتبي، محمد بن شاكر: فوات الوفيات والذيل عليها، تح، حسان عباس، دار الثقافة: بيروت، د.ت، ج١، ص٢٧٣، وسيشار اليه فيما بعد الكتبي: فوات الوفيات. الدواداري بيبرس المنصور: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة،ج١، مخطوط لوحة ٦١، نسخة مصوره على ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الاردنية شريط رقم ٢٠، وسيشار اليه فيما بعد الدوداري: زبدة الفكرة.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١ ق٢، ص٤١٥. الدواداري: كنز الدرر، ج٨، ص٣٨. حيث يشير الى ان الناصر اقطع بيبرس نابلس بمائة فارس فقط. ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧،ص٩٩.

(٤) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧،ص٩٩.

(٥) العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان، تح محمد امين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، حوادث سنة ٦٥٧ ص٢٣٤ وسيشار اليه فيما بعد العيني: عقد الجمان.

غادرها وترك فيها الامير مجير الدين بن ابي زكري، والامير علي بن شجاع ومعهما جماعة من العسكر(1). وقد بقيا في المدينة استعداداً للتصدي لهجمات التتار الذين وصلوا اليها بعد رحيل الناصر وهاجموها واخذوها بالسيف(2) بعد ان كبسوا على جيوش المسلمين بها وقد قتل التتار الاميرين مجير الدين وعلي بن شجاع(3) اما بقية جموع العساكر فقد تمزقت وتشتت في البلاد ووصل جزء منها الديار المصرية(4) وهكذا سقطت المدينة في قبضة التتار، ولا شك ان نابلس قد عانت من كارثة التتار معاناة كبيرة خاصة في هذه الفترة المضطربة من تاريخها حيث استعرضنا قضية تعرضها لاطماع المتنازعين على السلطة في المنطقة، وما تركه هذا النزاع من اثار على المنطقة ولا شك ان نابلس قد دخلت في حقبة مظلمة من تاريخها في ظل الاحتلال التتري حيث بقيت المدينة محتلة من قبل التتار حتى استطاع السلطان قطز ان يهزمهم في معركة عين جالوت قرب نابلس وذلك يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ/٣ أيلول ١٢٦٠م(5) وإثر هذا الانتصار استرد المماليك المناطق التي سيطر عليها التتار ومن ضمنها نابلس: ومن هنا وطد المماليك حكمهم ونفوذهم ودالت الدولة الايوبية لتدخل نابلس حقبة جديدة من تاريخها تعيشها في ظل المماليك.

## ولاية نابلس في العهد المملوكي:

بعد هزيمة التتار في عين جالوت واستعادة المناطق الاسلامية منهم، وقع خلاف بين الامراء المماليك حول اقتسام الاقطاعات في بلاد الشام بصورة عامة فحكموا السلطان قطز ليقوم بحسم اختلافهم فعمل قطز على توزيع الاقطاعات عليهم، حيث كانت نابلس من نصيب الامير شمس الدين اقوش البرلي، وكان مقطعاً نابلس من الايام المظفرية فأقره السلطان وزاده

---

(1) ابو الفداء: المختصر، ج٣،ص٢٠١، ولدينا اشارة سجلها الهمذاني تشير الى علاقة صداقة بين الملك الناصر وهولاكو وان هولاكو قد احاط الناصر برعايته وفوض اليه حكومة دمشق وسيره في ثلاثمائة فارس: رشيد الدين الهمذاني:جامع التواريخ،م٢ ج١، ص٣١٦.

(2) الذهبي: دول الاسلام،ج٢، ص١٢٥.

(3) أبو الفداء: المختصر،ج٣، ص٢٠٢.

(4) ابن ايبك الدواداري: كنز الدرر ،ج٨،ص٤٧.

(5) أبو الفداء: المختصر، ج٣،ص٢٠٥.

بيسان(1) وقد ظل الامير شمس الدين اقوش البرلي والياً على نابلس حتى بعد مقتل السلطان قطز على يد ركن الدين بيبرس البندقداري سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م(2) وقد اقر السلطان بيبرس الامير شمس الدين اقوش البرلي، والياً على نابلس الا ان الامير شمس الدين ما لبث ان نبذ طاعة السلطان وترك ولاية نابلس(3).

ومما يجدر ذكره في هذا الاطار، ان السكان في دمشق قد تلقوا نبأ مقتل السلطان قطز وتولي السلطان بيبرس بالحذر والقلق ولعلهم قد اسفوا على الجزاء الذي ناله المظفر بطل عين جالوت، وعز عليهم ان قاتل قطز يصبح سلطاناً عليهم، وعندئذ تحركت في نفوسهم عوامل الثورة والسخط ولعل سكان نابلس لم يختلفوا في مشاعرهم اتجاه ما حدث عن باقي سكان الشام لذلك لم يتردد الامير شمس الدين أقوش البرلي في نبذ طاعة السلطان والخروج عليه وأن يدعو لنفسه بالشام(4).

ولكن الاحداث اثبتت ان السلطان بيبرس كان على قدر المسؤولية التي القيت على عاتقه وقد اثبت بثاقب بصره، وحنكته السياسية وقوة شكيمته وشجاعته النادرة، انه واحد من اعظم سلاطين الاسلام فقد ثبت اركان الدولة، والتفت الى الثورات الداخلية التي اشتعلت من قبل التتار والفرنجة الذين حاولوا ضرب الدولة الناشئه والقضاء عليها فأخمدها وشرع في تطهير البلاد من الغزاة المعتدين. وقد نجح الى حد بعيد في تقليم اظافر الفرنجة والتتار وحماية البلاد من

---

(١) الدواداري: زبدة الفكرة، ج١٠، مخطوط لوحة ٨٧. النويري: نهاية الارب، ج٣، ص٤٤، العيني: عقد الجمان، ص٣٢٢. ابن عبد الظاهر، محي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح ونشر عبد العزيز خويطر، الرياض، ط١، ص١٣٤، وسيشار اليه فيما بعد ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر.

(٢) ابو الفداء: المختصر، ج٣، ص٢٠٧.

(٣) ابن عبد الظاهر، محي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح، عبد العزيز خويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦، ص٩٧، وسيشار اليه فيما بعد ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر. ابو الفداء: المختصر، ج٣، ص٢١٠-٢١١.

(٤) يوسف غوانمة: التاريخ السياسي لشرقي الاردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢، ص٥٨، وسيشار اليه فيما بعد غوانمة: التاريخ السياسي.

شرهم، ورغبة منه في النهوض بذلك شمل بلاد الشام برعايته فشرع في اعادة ما دمره التتـار مـن قلاع وحصون واقام الجسور بحيث انه اعاد للبلاد سابق عهدها من نهوض وازدهار.

وفي عام (٦٦٠هـ/١٢٦٢م) التفت الظاهر بيبرس الى نابلس، فأخذ يعمل على تنظيمها فكان ان قام بمنح نصف اقطاع نابلس للأمير سيف الدين سلار(١) وقد بقي عليها سلار مدة ستة اشهر ثم ما لبث السلطان ان غير رأيه وقرر نقله الى مصر وتركه لاقطاع نابلس(٢) ومن ناحية اخرى فان المصادر لا تشير الى من كان يتولى نابلس فيما بين عام (٦٦٠-٦٦٤هـ/ ١٢٦١-١٢٦٥م) من الولاه او الى من كانت تقطع ولكن هناك اشارات تحدثت عن قيام السلطان الملك الظاهر بيبرس باقطاع مناطق من قرى نابلس الى امرائه مثل ما حدث (٦٦٣هـ/١٢٦٤م)، بعد معركة ارسوف حيث قام السطان باقطاع قرية بورين(٣) مناصفة ما بين ا لاميرين جمال الدين اقوش المحمدي، والامير فخر الدين الطنبا الحمصي(٤) حيث اشهد السلطان على نفسه بذلك وكتب كتاب التمليك الشرعي الجامع بذلك وفرق النسخ منه لكل أمير نسخة بما ملكه اياه وقد جعل السلطان بيبرس تلك الاقطاعات اقطاعات تمليك تدوم للولد وولد الولد الى آخر الدهر(٥).

وفي عام (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) شارك والي نابلس والاغوار الامير بدر الدين محمد بن رحال في عمارة جسر دامية على نهر الاردن(٦) وقد جاءت عمارة الجسر تعبيراً عما اكنه الظاهر

---

(١) شمس الدين سلار: رجل تركي من قبيلة دورك وهو من مماليك الخليفة الظاهر بأمر الله ولاه واسط الكوفة والحلة ، النويري: نهاية الارب، ج٣٠،ص ٥٤-٥٥.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٢٣، المقريزي: السلوك، ج١ق٢، ص٤٦٨.

(٣) بورين: بلدة تقع على بعد عشرة اكيال جنوب نابلس وتشتهر بزراعة الحبوب والخضر محمد شراب: معجم بلدان فلسطين، ص١٧٢.

(٤) مفضل بن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك (٦٥٨-٦٧٠هـ) نشرة وليم بو لشية نسخة مصورة لدى الباحثة عن المكتبة الظاهرية بدمشق م٥١٦،، ص١٣٩-١٤٠. وسيشار اليه فيما بعد مفضل بن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك.

(٥) الدواداري: زبدة الفكرة، ج١٠، لوحة ١٠٣، ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤٤.

(٦) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٤٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٦١.

بيبرس لهذه المنطقة من الاهتمام فهي تقع على طريق القوافل بين دمشق والقاهرة، اضافة لما تمثله من اهمية اقتصادية. بالنظر الى خصب اراضيها والتي انتجت الغلال الوفيرة وفي طليعتها قصب السكر[1] لذلك ندب السلطان بيبرس الامير جمال الدين المهندار لعمارة هذا الجسر، وهنا استعان هذا الامير بوالي نابلس والاغوار ابن الرحال في العمارة، وقد تمكنا من انجاز هذا البناء الذي ساهم في خدمة التجارة وتسهيل التنقلات بين أجزاء السلطنة المملوكية.

ونكاد في الفترة ما بين (٦٦٤-٦٧٧هـ/١٢٦٥-١٢٧٨م) لا نعثر على اخبار عن نابلس فيما بين ايدينا من مصادر ويبدو لي انه ونتيجة لطول فترة الحكم المملوكي كما سيظهر لنا (٦٥٨هـ-٩٢٢هـ/١٢٦٠-١٥١٦م) وذلك مقارنة مع العهد الايوبي السابق (٥٨٣-٦٥٨هـ/١١٨٧-١٢٦٠م) قد وفر لنابلس فترة من الامن والاستقرار كانت في امس الحاجة لها وقد ترك ذلك أثراً كبيراً على المدينة بحيث التفتت الى مختلف مظاهر الانشطة الحضارية من معمارية واقتصادية وعلمية بحيث ابدعت نابلس الكثير من مظاهر التقدم والرقي في هذه الفترة، ولعل من ابرز سمات نابلس في هذه الفترة وبخلاف الفترة السابقة ان الولاية عاشت بمنأى عن الهجمات الفرنجية والتترية التي كانت تتعرض لها بين الفترة والاخرى، ان نهاية مثل هذه الاعتداءات قد ساعد في ارساء دعائم الامن والاستقرار وهو ما لم توفره الفترة السابقة ولعل في تعرض نابلس للهجوم الذي شنه الداوية عليها سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) وتعرضها للغزو التترى ما يدعم ما ذهبنا اليه من المعاناه والقسوة التي كانت تعانيها نابلس من جراء تلك الاعتداءات في الفترة السابقة وهو ما كان ينعكس باثارة السلبية على كل أوجه الحياة في نابلس.

ان مثل هذه الاوضاع المضطربة قد انتهت الآن في ظل الدولة المملوكية، ولعل ذلك يعود الى شدة بأس الدولة المملوكية ولرهبة الفرنجة منهم فغدت لذلك نابلس مدينة داخلية من مدن السلطنة المملوكية البعيدة عن الاخطار وهو ما مكنها من المشاركة في مختلف نواحي الحياة

---

(١) غوانمة: التاريخ السياسي، ص٧٤.

أن ما اشرنا اليه لا يعني ان نابلس باتت في عزلة عن المشاركة في الحياة السياسية المملوكية؛ فقد حدث في عام (٦٦٩هـ/١٢٩٩م) ان قام صاحب قبرص بمساومة الملك الظاهر لآخذ بعلبك ونابلس مقابل مجموعة من الاسرى المسلمين وقعوا في يده بعد ان تكسرت سفنهم في عرض البحر ولكن السلطان بيبرس رد على رسل صاحب قبرص بقوله "باننا نأخذ منكم حصونكم اول بأول وتطلب مني حصوني"(١) لذلك لم يجبه الى طلبه على اية حال توفي السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس في دمشق يوم الخميس (٢٧ محرم ٦٧٦هـ/٣٠ حزيران ١٢٧٧م) واجلس مكانه على تخت السلطنة ابنه الملك السعيد ناصر الدين ابو المعالي محمد بركه(٢) ولم يقبل المماليك بمبدأ توريث العرش لكونهم نظروا الى السلطان على انه مملوك مثلهم، ولا بد ان يؤول العرش تبعاً لذلك للأمير الاقوى والاكثر شجاعه ومقدرة على تصريف الأمور، لذلك اثيرت المتاعب في وجه الملك السعيد رغبه منهم في التخلص منه، وقد استعان الملك السعيد بعربان جبل نابلس وعساكر من دمشق وصفد وطرابلس وذلك لردع مجموعة الامراء الخارجين عن طاعته، والذين التجأوا بدورهم الى المرج الأصفر واقاموا به وهنا حاول الملك السعيد القيام بأجراء الصلح بعد خروجه الى الشام، الا ان الامراء رفضوا ذلك وامتنعوا عن الحضور فما كان منه الا ان استعان بعربان نابلس والعساكر السابقة الذكر حتى يتمكن من الخروج من دمشق والوصول الى مصر. وقد لازمه العربان والعساكر وقاموا على خدمته وحمايته حتى وصل الى غزه واصبح في مأمن عن الامراء الخارجين عليه فاغدق لذلك الملك السعيد الاموال على من رافقه وانفق عليهم الشيء الكثير(٣).

على اية حال لم يستطع الملك السعيد الاحتفاظ طويلاً بالعرش حيث اجبر على التنازل عنه نهاية شهر ربيع (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) لصالح اخيه بدر الدين سلامش على ان يتولى سيف

(١) ابن ابي الفضائل: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٩٨. ابن ايبك: كنز الدرر، ج٨، ص١٦١.

(٢) ابو الفداء: المختصر، ج٤، ص١٠.

(٣) ابن اياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور تح، محمد مصطفى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ج١، ق١، ص٣٤٤-٣٤٥. وسيشار اليه فيما بعد ابن اياس: بدائع الزهور.

الدين قلاوون مهمة الاتابك والذي ما لبث ان مهد الامور لصالحه وقام بعزل سلامش، وارتقاء عرش السلطنة مكانه في ٢١ رجب ٦٧٨هـ ١٧ تشرين ثاني ١٢٧٩م(١).

وبعد ان استقرت له الامور قام بتعيين الامير عماد الدين داود بن ابي القاسم والياً على ولاية نابلس وذلك في سنة (٦٨٠هـ/١٢٨٠م)(٢) الا ان هذا الوالي لم يمكث طويلاً في ولايته حيث قام السلطان قلاوون بعزله في سنة ولايته هذه وبتعيين الامير زين الدين قراجا البدري مكانه(٣) على ان اداره البدري لهذه المنطقة قد اتسمت بالاضطراب اذ لم يلبث ان قام البدو المحيطين بنابلس بالتمرد على السلطنة المملوكية ومهاجمة نابلس ونهبها وقتل الكثير من سكانها مما دفع بالامير علاء الدين ايدكين الفخري نائب غزه للتدخل في الامر والحضور الى نابلس لمساعده واليها في إقرار الامور، واعادة الامن الى نصابه ومواجهة هؤلاء البدو، ومعاقبتهم حتى لا تسول لهم انفسهم بالخروج مرة اخرى على السلطة، وقد تمكنا من القبض على المهاجمين وشنقا اثنين وثلاثين منهم وسجن الباقي(٤) وعلى إثر هذه الحركة التمردية قام السلطان قلاوون بعزل قراجا البدري وتعيين الامير جمال الدين اقوش الحمصي بدلاً منه في ولاية نابلس(٥).

وبعد رحلة قضاها سيف الدين قلاوون في الجهاد وتثبيت أركان الدولة اعتل عله الموت وذلك اثناء استعداده لغزو عكا واشتدت عليه الى ان توفي في السادس من ذي القعدة ٦٨٩هـ/١٠ تشرين ثاني ١٢٩٠م(٦) وتقلد الامر من بعده السلطان الاشرف خليل بن قلاوون وبعد قضائه على المعارضة المألوفة في مثل هذه الحالات شرع في إتمام الاستعدادات لغزو عكا

---

(١) ابو الفداء: المختصر، ج٤، ص١٢.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١ق٣،ص٦٧٠.

(٣) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم: تاريخ ابن الفرات، تح حسن محمد الشماع، كلية الاداب، جامعة البصرة، ج٧، ص٢٢٦. وسيشار اليه فيما بعد ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات.

(٤) المصدر نفسه والجزء،ص٢٢٥، المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٩-٧٠٠.

(٥) المصدر نفسه والجزء،ص٢٢٦.

(٦) ابو الفداء: المختصر،ج٤، ص٢٣.

فارسل الى مدن الشام وحصونها لاستنفار الاهالي للجهاد كما طلب من جميع النواب هناك الحضور بجيوشهم للمشاركة في الجهاد(1) وما من شك في ان ولاية نابلس ممثلة بواليها المملوكي قد شاركت في الاستعداد والجهاد لطرد بقايا الفرنج من بلادنا ذلك ان نداء الملك الاشرف كان عاماً لكل ثغور الشام ومدنها وبالتالي ورغم عدم الاشارة في المصادر مباشرة الى مشاركتها الا اننا نستطيع ان نستنتج هذه المشاركة لكون السلطان لم يستثني احداً من شرف الجهاد.

على أية حال لم تطل فترة حكم السلطان الاشرف خليل اذ ما لبث ان نشب بينه وبين الامراء المماليك نزاعاً ترتب عليه اتفاق هؤلاء على التخلص منه وفعلاً دبر الامراء مؤامرة انتهت بقتله في ١٢ محرم ٦٩٣هـ /١٣ كانون اول ١٢٩٣م. وقد شارك فيها بفعالية الامير حسام الدين لاجين، وتم تنصيب اخيه محمد بن قلاوون مكانه ولكن صغر سنه جعل الامراء المماليك يتأمرون عليه، وهنا نجح زين الدين كتبغا وحسام الدين لاجين في تدبير مؤمراة اطاحت بالسلطان محمد بن قلاوون، واعتلاء كبتغا مكانه لعرش السلطنة ولكنه لم يستقر فيها اكثر من تسعة اشهر حيث دبر لاجين اثناء خروجهم الى الشام مؤامرة اطاحت به ليتولى شؤون السلطنة حسام الدين لاجين(2) الذي تلقب بالملك المنصور، وقد كانت نابلس دائمة التفاعل مع الاحداث والتغيرات التي تصيب الدولة المملوكية ومنها هذا الحدث الذي تم في عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م اذا اقيمت له الخطبة في القدس الشريف وبلد الخليل وغيرهامن بلاد الشام والساحل اما نابلس فقد دقت البشاير بها وتزينت لسلطنة حسام الدين لاجين(3) احتفالاً بهذه المناسبة.

---

(1) المصدر نفسه والجزء، ص٢٤.

(2) ابو الفداء: المختصر، ج٣،ص٣٠-٣٤.

(3) مجهول: تاريخ سلاطين المماليك، نشره زيتر ستين، ليدن، ١٩١٩ ج٧، ص٤١.وسيشار اليه فيما بعد مجهول: تاريخ سلاطين المماليك.

وفي ١١ ربيع الآخر ٦٩٨هـ/٢٧ كانون ثاني ١٢٩٩ وثب الأمراء على لاجين وقتلوه بسبب سياسته الهوجاء ضدهم واعادوا السلطان محمد بن قلاوون الى السلطنة وهي سلطنته الثانية[١]، وفي سلطنة محمد بن قلاوون الثانية تعرضت نابلس في عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م لهجمة مغولية شرسة بقيادة محمود غازان[٢] وهي الهجمة التي استولى فيها المغول على دمشق وانتشروا حولها مهاجمين الأماكن المجاورة لها وقد انتهت غاراتهم الى القدس وبلد الخليل ونابلس [٣] وارتكب المغول خلال هذه الهجمة الوحشية شتى الفظائع جرياً على عادتهم في معظم المناطق التي دخلوها حتى دخلوا الى غزه، وقتلوا بجامعها خمسة عشر نفراً[٤] وهنا لم تقف نابلس مكتوفة الايدي بل شارك عربانها في الحملة التي قادها سلطانهم دفاعاً عن انفسهم وبلادهم لدرء خطر غازان ومن معه حيث خرج للقائه سنة (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) وتلاقى الفريقان على مرج راهط، وكان بينهما وقعة لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الوقعات المشهورة وانتهت بانتصار السلطان محمد بن قلاوون وهزيمة عساكر غازان بعد ان قتل منهم نحو النصف واسر البعض منهم[٥] وفي السنة ذاتها (٧٠٢هـ/١٣٠٢م) وقعت حادثة غريبة انقسمت على اثرها نابلس على نفسها وكادت تقع فتنه بين اهلها ذلك ان الحنابلة قد صاموا شهر رمضان حسب عادتهم بالاحتياط. واستكمل الشافعية وغيرهم شعبان وصاموا، ولما اتم الحنابلة صيام ثلاثين يوماً افطروا وعيدوا، وصلوا صلاة العيد في الوقت الذي لم ير فيه الهلال، غير ان الشافعية وغيرهم صاموا ذلك النهار واصبحوا فافطروا وعيدوا وصلوا صلاة العيد، وعندما علم نائب الشام بذلك، انكر هذا العمل على متولي نابلس وأنبه مستهجناً كيف ان الناس في نابلس لم يجمعوا على يوم واحد للصيام والعيد وهو أمر لم يسمع بمثله من قبل[٦]؟

---

(١) ابو الفداء: المختصر، ج٤، ص٤٠.

(٢) غازان: احد ملوك المغول الذين تولوا العرش سنة ٦٩٤هـ، الهمداني: جامع التواريخ، م٢ ج١، ص١٢.

(٣) النويري: نهاية الارب، ج٢٧،ص ٤١٣.

(٤) النويري: نهاية الارب، ج٢٧، ص ٤١٣.

(٥) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤١٣.

(٦) المقريزي: السلوك،ج١، ق٢، ص٩٤١.

وفي الفترة الواقعة ما بين عامي (٧٠٢-٧٣٦هـ/١٣٠٢-١٣٣٥م) لم ترد في المصادر اية اشارات او ذكر لنابلس باستثناء الاشارة التي تحدثت عن اشغال منصب والي نابلس من قبل نجم الدين ابن الزيبق[١] وعلى ما يبدو ان نابلس في هذه الفترة قد نعمت بالاستقرار والأمن.

وقد شهدت الولاية العديد من الفتن والاضطرابات وخاصة في العصر المملوكي الثاني (عصر الجراكسة) وسنلحظ على هذا العصر ان الأحداث ستدور كلها حول حركات التمرد والعصيان التي قادها العشير والعربان[٢] في نابلس ويبدو لي ان دراسة حركات العشير والعربان في المنطقة تستحق ان تدرس بمنظار اكثر شمولية مما حاول البعض ان يضعها فيه فهي في معظمها لم تعبر عن جنوح هؤلاء الى الشغب والفوضى وحب الإثارة والنهب بقدر ما كانت في احيان كثيرة اكثر عمقاً وايجابية مما يظن، لقد كانت في جانب من جوانبها، ومنذ بداية الدولة المملوكية عبارة عن حركات مقاومة عربية موجهة ضد الدولة المملوكية ولدينا أمثلة على تلك الحركات قد لاتكون حدثت في نابلس ولكن حدوثها وفي اماكن متفرقة من الدولة يعطي مؤشراً على اتجاهات استقلالية عند العرب ضد السلطنة المملوكية ومن ذلك على سبيل المثال ثورة القبائل العربية في سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) بزعامة الشريف حصن الدين وهي الثورة التي صرح قائدها بنوازعه الاستقلالية اتجاه السلطة المملوكية حين قال :"بأننا نحن اصحاب البلاد" ومنع الجند من تناول الخراج وقال :"بأننا أحق بالملك ممن المماليك" وقد كانت هذه الثورة من الشدة بحيث شارك فيها اثني عشر ألف فارس وعدد كبير من المشاه ومع ذلك تمكن المماليك من القضاء عليها وهزيمة هذا الجمع العربي[٣].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٥٤.

(٢) يقصد بالعشير قبائل الفلاحين في سوريا وفلسطين ولبنان وقد اطلق على هؤلاء الفلاحين لقب العشائر او العشير اوا العشران وابان الحروب كانت الدولة المملوكية تستأجرهم مرتزقة مشاه سلاحهم الاقواس والسهام والحجارة. أما العربان فيقصد بهم قبائل البدو ويذهب بولياك الا انهم البدو الذين لم ترد اسماؤهم بين القبائل البدوية الخلص. بولياك الاقطاعية، ص٤٤-٤٥.

(٣) عبد المجيد عابدين: دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل، ملحق بكتاب المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٦١، ص١٢٢-١٢٣، وسيشار اليه فيما بعد عابدين: دراسات في تاريخ العروبة.

وكذلك الثورة التي قادها محمد بن واصل العركي (الأحدب) وبلغت حداً من الجرأة بحيث نادى هذا الثائر بنفسه سلطاناً وجلس وخلفه المسند وأجلس حوله العرب وانفذ أمره في الفلاحين مما دفع المماليك لعقد مجلس مشورة في عام (٧٥٤هـ/١٣٥٣م) لتدارس أمر هذه الثورة في الصعيد وغيرها(١) وقد لمست الدولة المملوكية تزايد دور العربان في السياسة مما دفعها للقيام بمحاولات جدية لكسبهم الى جانبها عن طريق مراعاة مصالحهم بقدر الامكان اضافة الى رشوتهم بالاقطاعات والمبالغ المالية الكبيرة لذلك كان المماليك اول من توصل لحل مشكلتهم باحداث منصب "امرة العرب"(٢) الذي جعلته رتبه عسكرية عالية ضمن الجهاز الاداري واضافة الى الدافع التحرري كانت هناك دوافع اخرى لثورات العربان مما جعل الولاية مسرحاً للقتال ما بين القوات المملوكية والعربان في كثير من الاوقات وقد جهدت الدولة للأستفادة من العربان فكانت تستخدمهم لكي تجند منهم اعداداً كافية لارسالهم في حملات عسكرية لقتال القوات المناوئة للسلطة المملوكية، وفي ذلك تحقق اكثر من هدف فهي بارسالهم في مثل هذه الحملات تستفيد الدولة من مقوماتهم وقوتهم كذلك تساهم في التخلص من شرورهم بشغلهم في أعمال تعود بالنفع عليها أما في حالة حدوث الفتن الداخلية بين القبائل نفسها فكانت الدولة تنصّب نفسها كحكم ومصلح بينهم مثال ذلك ما حدث سنة (٧٣٨هـ/١٣٣٧م) عندما خرج تنكز نائب الشام الى عربان نابلس من أجل الإصلاح فيما بينهم على اثر حدوث خلاف بينهم(٣).

وفي بعض الأوقات كان للعربان دور مهم في اللعبة السياسية وفي مناصره طرف على حساب الاخر للأستئثار بمنصب السلطان مثلما حدث في عام (٧٤٢هـ/١٣٤١م) حين وقف عربان جبل نابلس الى جانب الأمير أحمد بن الملك الناصر محمد بن قلاوون حين ساعدوه وقدموا له العون عندما عزم على قتال نائب الشام(٤) الذي عمل على مساعدة قوصون احد

---

(١) عابدين: دراسات في تاريخ العروبة، ص١٣٠.

(٢) العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (قبائل العرب في القرنين السابع والثامن هـ) تح دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ط١، ١٩٨٥ مقدمة المحقق ص١٦.

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١ ق١، ص٤٤٧.

(٤) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١ ق١ ص٧٤٢.

الامراء المتنفذين في الحكم في مصر والشام، بعد وفاة الملك محمد بن قلاوون حيث قام بعزل السلطان المنصور ابي بكر بن محمد ونفاه هو واخوته وعين الاخ الاصغر لهم الامير كجك الملقب بالأشرف ولم يتجاوز من العمر خمس سنوات. على ان يتولى قوصون نيابة السلطنة فاستغل هذه الحادثة وراح يتصرف كيفما شاء[1] فقاد لذلك الأمير أحمد حركة من أجل التخلص من قوصون، واستعادة الحكم لذلك استعان بعربان جبل نابلس لمساعدته في بلوغ مراده، والذين قدموا له كل ما باستطاعتهم لتحقيق غايته، وأما في عام (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) فقد ثار عربان الشام وكثرت الحروب وانتشر الفساد بينهم فقتل بعضهم بعضاً ونهبوا الفرد[2] ونابلس[3].

اما في السنة التي تلتها وهي سنة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م) فقد قام عشير الشام وثار بعضهم على بعض وشنوا الغارات على بعضهم في بلاد القدس والخليل ونابلس ولعل مرد ذلك الى ان عشير الشام فرقتان قيسية ويمنية وبينهما خلافات كثيرة لا تكاد تهدأ حتى تثور لذلك يثورون بعضهم على بعض ويكثر قتلاهم فيأتي اليهم من السلطان من يجبيهم الاموال الكثيرة، فلما وقع الفناء في الناس ثاروا على عادتهم وطالت حروبهم وذلك لاشتغال الدولة عنهم فعظُمَ فسادهم وقطعوا الطرق على المسافرين فجردت اليهم حملة بقيادة الأمير ارغون شاه نائب الشام في عدة من الأمراء فلم يظفر بهم، واقام بالعسكر على اللجون وتمادى العشير في شن الغارات على بلاد القدس والخليل ونابلس[4].

وبانتهاء دولة المماليك الأولى وقيام دولة المماليك الثانية بحدود عام (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) ازدادت اهمية منطقة نابلس وقد لعبت دوراً له اهميته وخاصة في اواخر دولة المماليك الثانية اذ

---

(١) المقريزي: ج٢، ص٥٩٣، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٤٩.

(٢) الفرد لم يرد عند ياقوت الحموي في معجم البلدان اي ذكر لبلد بهذا الاسم على انها بالقرب من نابلس.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٧١.

(٤) المقريزي: السلوك ، ج٢، ق٣، ص٧٥٠.

كان للكثافة السكانية العالية للمنطقة الدور الكبير في ذلك. فغدت مصدراً مهماً لجمع الرجال وتجنيدهم لقتال الدولة العثمانية بعد ان تراجعت القوة المملوكية تدريجياً بسبب نقص الموارد الاقتصادية وتحول طرق التجارة العالمية عن ممتلكاتها في مصر الشام(١).

وفي هذه الحقبة من عمر الدولة المملوكية (الجراكسة) تزايد دور العربان في الاحداث السياسية ففي عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م قام عربان منطقة نابلس بمساعدة الامير طشتمر(٢) نائب الشام ومجموعة من الامراء كانوا معه في الخروج الى مصر لمحاربة الامير اينبك البدري بعد ان اعلنوا خروجهم عن طاعته(٣) ولعل من الامور اللافتة للنظر التنافس الكبير الذي حدث بين مشايخ العربان في الدولة على منصب مشيخة العربان، وفي هذا الاطار تنافس على مشيخة العربان في منطقة نابلس كل من بني اسماعيل وبني عبدالقادر حيث استمر هذا التنافس على المشيخة ردحاً طويلاً من الزمن في عهد الدولة الجركسية(٤) ولعل من اكثر من اشتهر من مشايخ عربان نابلس في ظلمة وتعسفه ضد الناس الشيخ محمد بن عبد القادر الذي كان يسعى بكل ما يستطيع الى ان تصبح مشيخة العربان في نابلس من نصيبه غير ان المشيخة انتقلت لشخص اخر هو الشيخ ابن عبد الساتر وقد حاول الشيخ محمد بن عبد القادر بشتى الاساليب انتزاع المشيخة منه وخاصة في سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م) ولكنه لم ينجح في مسعاه، وذلك بعد ان درات بين الشيخين حروباً طويلة انقطعت بنتيجتها الدروب والمسالك(٥) وبعد هذه المنازعات والحروب

---

(١) يوسف غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكين دار الحياة، الزرقاء ١٩٨٢،، ص٥٩. وسيشار اليه فيما بعد غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس.

(٢) الامير طشتمر: احد امراء المماليك ترقي في الوظائف الى ان تولى منصب نيابة السلطنة بدمشق، تخوف من تحكم أيتبك في شوون السلطنة فتزعم حركة نواب الشام ضده ٧٧٩هـ/١٣٧٧م حيث انتهت بعزل طشتمر من منصبه . طه تلجي طراونه: مملكة صفد في عهد المماليك، دار الافاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٢، هوامش ص١٩٧ سيشار اليه فيما بعد طراونه: مملكة صفد.

(٣) الامير أيتبك البدري: هو اتابك العساكر المصرية سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م وكان صاحب الامر في العزل والتعيين والمتصرف بشوون السلطنة. طراونه: مملكة صفد، هامش ص ١٩٧.

(٤) بولياك، أ.ن: الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم منشورات دار الكشوف، بيروت ط١، ص٤٨-٤٩. وسيشار اليه فيما بعد بولياك: الاقطاعية.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص١٤٠.

استطاع ابن عبدالقادر انتزاع مشيخة عربان نابلس وكان ذلك بعد سنة (٨٢٢هـ/١٤١٩م) واصبح شيخ جبل نابلس بعد ان قتل الشيخ ابن عبد الساتر وقد اتسمت فترة توليه للمشيخة بالفساد حيث اعتبرت فترة حكمه من اكثر الفترات فساداً(١) وهذا ما دفع السلطان الملك الظاهر حقمق الى عزله وسجنه بسجن الاسكندرية الا انه وفي سنة (٨٥٨هـ/١٤٥٤م) تحايل بأن لبس زي النساء وخرج من السجن ولا زال يواصل مساعيه حتى وصل الى نابلس وانضم الى جماعة من أعوانه واصحابه الا ان رجلاً من ابناء عمومته قد خرج اليه وتقاتلا فانكسر محمد بن عبد الله بن عبد القادر وقُتل وقتل معه جماعة من أصحابه. وقام ابن عمه بارسال رأسه الى السلطان فسُر السلطان بذلك وارسل الى ابن عمه باستمرارة على مشيخه عربان جبل نابلس(٢).

وفي الفترة الواقعة ما بين (٨٧٠-٨٧٧هـ/١٤٦٥-١٤٧٢م) بدأ الصراع ما بين المماليك والعثمانين وهنا برزت اهمية ولاية نابلس كما المحنا انفاً، وقد كافح المماليك في هذا الصراع كفاحاً مريراً بغية حماية منطقتهم من خطر العصابات التي كان يدعمها العثمانيون ونتج عن هذا الصراع ان تزايد دور العربان في هذه الحروب بان قطعوا الطرق وتعرضوا للقوافل الذاهبة الى القاهرة والحقوا الاضرار بجنوب دمشق ومنطقة حوران واجزاء من فلسطين وكانت الرملة الأكثر تضرراً أما نابلس فقد أصبحت ميداناً للقتال بين القوات المملوكية وبين القبائل المحلية، وازداد تفاقم الامر وتحول الوضع من سيئ الى اسوأ مع نهاية القرن تقريباً(٣).

---

(١) نفس المصدر والجزء والقسم، ص٥١٥-٥١٦.

(٢) لم تذكر المصادر اسم ابن عم محمد بن عبدالقادر الذي قام بهذه الحركة الانقلابية ضد ابن عمه ولكن من المؤكد انه تولى مشيخه العربان في جبل نابلس، ابو المحاسن: حوادث الدهور في مدى الايام والشهور، تح محمد كمال الدين، عالم الكتب،ط١،د.م ١٩٩٠ ج٢، ص٥٠. وسيشار اليه فيما بعد ابو المحاسن: حوادث الدهور.

(٣) برامارفين لابيدوس: مدن الشام في العصر المملوكي، نقله الى العربية وقدم له سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق ط١، ١٩٨٥،ص٨١-٨٢. وسيشار اليه فيما بعد لابيدوس: مدن الشام.

وفي عام (٨٩١هـ/١٤٨٦م) وقعت فتنة عظيمة بين عربان نابلس وذلك على خلفية التجريدة(١) التي ارسل في طلبها السلطان قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٧-١٤٩٥م) من اجل التصدي للسلطان العثماني بايزيد بن عثمان، والتي حضر من اجلها الى نابلس الامير (اقبردي الدوادار)(٢) الكبير حيث قام هذا الامير بتجهيز الرجال، وعرضهم ودفع النفقة لهم الا ان مشايخ عربان نابلس اختلفوا فيما بينهم واتهم بعضهم بعضاً بالتكاسل، مما ادى الى وقوع فتنة عظيمة فيما بينهم ذهب ضحيتها الامير اقبردي بن بخشايش الاينالي استادار الاغوار وقتل جماعة كثيرة من العربان معه منهم ابو بكر امير جرم ويوسف بن الجيوسي، أحد مشايخ عربان نابلس وجماعة كثيرة من اولاد اسماعيل واولاد عبد القادر، ووقعت فتنة عظيمة، وعندما بلغ السلطان خبر تلك الفتنة المروعة قام بتعيين الامير اقبردي الدوادار الكبير للتحقيق والنظر في هذا الأمر، وطلب اليه سرعة التوجه الى نابلس للقيام باخماد هذه الفتنة المشتعلة بين العربان(٣).

وفعلاً غادر الأمير اقبردي القاهرة، ونزل الى نابلس وهناك قام بالقاء القبض على كل من شارك في اثارة هذه الفتنة من اعيان المشايخ(٤) وعمل على معاقبتهم بما يستحقوه. ويستفاد من هذه الأخبار أن ولاية نابلس كانت ولاية مهمة من ولايات السلطنة المملوكية من الناحية الديموغرافية مما دفع الدولة الى الاستعانة بها لتجنيد الحملات السائرة الى قتال العثمانين لذلك فان السلطان قايتباي حينما تأزمت علاقاته السياسية مع السلطان بايزيد بن عثمان مرة اخرة سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٧م) لجأ الى ولاية نابلس لتجنيد رجالها لقتال العثمانيين وهنا قام السلطان

---

(١) التجريدة: جماعة منقطعة من الجند.

(٢) اقبردي الدوادار: من كبار الامراء المماليك في عهد الاشرف قايتباي، كان دودار بمصر الى ان قام سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م مع عدد من الأمراء بالتآمر على السلطان محمد بن قايتباي ثم اخرج الى دمشق نائباً للسلطنة فيها، وهناك قام بحركة عصيان ضد السلطان، طراونة: مملكة صفد، هامش ٢٠٦.

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٢٥.

(٤) نفس المصدر والجزء، ص٢٣١.

المملوكي بارسال الامير اقبردي الدوادار وبصحبته القاضي زين الدين بن مزهر كاتب السر في القاهرة الى نابلس لتجهيز الرجال لهذه الحرب وفعلا تم تجهيز الرجال وارسالهم الى الحرب(١).

وفي السنة التي تلتها وهي سنة (٨٩٤هـ/١٤٨٨م) حضر الامير اقبردي الدوادار الى نابلس مرة اخرى، ولكن ليس لتجهيز الرجال للقتال هذه المرة وانما لالقاء القبض على مشايخ نابلس لما حصل منهم من التقصير اثناء التجهيز لقتال بايزيد بن عثمان وكذلك بسبب رجوعهم من بلاد الاتراك بدون أذن فأمر السلطان قايتباي عندئذ باسترجاع ما دفع لهم سابقاً من مال التجريده المذكورة، وقد عهد بهذه المهمة الى نائب القدس الامير دقماق الذي قام بالضرب والحبس وافحش في الامور على اهل نابلس(٢). حتى تعدى الى ضرب الناس بالمقارع وفعل بهم فعلاً لم يسمع بمثله في الجاهلية حتى ان بعض الناس باع ابنته كما يباع الرقيق وتفاحش الامر وبقي الناس في شدة شديدة ومحنة لم تعهد(٣).

ولم يكتف الامير اقبردي الدوادار بذلك بل سافر في سنة (٨٩٥هـ/١٤٨٩م) الى نابلس، وحصل منه في هذه السفرة الضرر الكبير للناس(٤) وقام باهلاك الحرث والنسل(٥) ولم يقف عند هذا الحد بل تعداه الى فرض الضرائب الباهضة فكان يجمع الاموال من السكان وبشكل مستمر(٦) واستمرت عملية جمع الاموال من عشير نابلس بعد ذلك.

وفي السنوات الواقعة ما بين (٩٠١-٩٠٣هـ/١٤٩٥-١٤٩٧م) كان السلطان الاشرف قايتباي يأمر بجمع الاموال عندما كان يخرج لملاقاة ابن عثمان من المناطق المتابعة له. وكان

---

(١) الحنبلي: الانس الجليل، ج١، ص٩٤، ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٥٠.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣،ص٢٥٠-٢٥١.

(٣) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٣٤٥.

(٤) ابن أياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٧٥. ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج١، ص١٣١.

(٥) نفس المصدر والجزء، ص٢٨١.

(٦) نفس المصدر، ج٤، ص٥٦.

بان نابلس من الفئات التي الزمت بدفع الأموال لخدمة المجهود الحربي للدولة المملوكية في ـة عدم مشاركتها في التجاريد العسكرية بالرجال وفي حالة ما كانت ترفض فان السلطان كان يولي جماعة من مماليكة عوضاً عن مشايخ العربان فيجورون على الفلاحين ويأخذون منهم غير العادة اضعافاً(١).

وبعد الامير اقبردي الدوادار عينت الدولة المملوكية اميراً جديداً على نابلس ليتولى جباية الأموال من العشير، وهو الأمير ازدمر الدوادار والذي خرج الى نابلس في الفترة الواقعة بين عام (٩٠٨-٩٠٩هـ/١٥٠٢-١٥٠٣م) لجمع الأموال(٢) وللقضاء على فساد العربان من جديد في تلك المنطقة التي عادت لتشهد قيام اضطرابات فيما بين عربان بني لام مما استدعى خروج الامير ازدمر الدوادار اليهم للقضاء على تحركاتهم وقد استصحب معه في هذه المهمة خمسمائة فارس من المماليك السلطانية(٣) وغداة دخوله الى نابلس قام بمهاجمة قبائل العربان من بني لام وحقق الانتصار عليهم فقتل منهم جماعة كبيرة واسر من كبارهم عشرة انفار وعاد الى القاهرة(٤).

وفي عام (٩١٨هـ/١٥١٢م) خلع السلطان قانصوه الغوري على خليل بن اسماعيل بن شبان شيخ عربان نابلس، وقرره في امره عربان نابلس بعد ان دفع مبلغ من المال(٥) الى السلطان مما يجعلنا نستنتج مدى ما اصاب الدولة المملوكية في اواخر ايامها من تدهور بحيث يصبح منصب كمنصب مشيخة العربان من المناصب التي ينظر السلطان فيمن يتولاّها ولا يقف الامر عند هذا الحد بل يسعى الطامع فيه مضطراً الى البذل والبرطلة بغية الحصول عليه مما يعني ان الدولة تسير حثيثاً في طريقها الى الانهيار وقد جرت العادة في هذا الاطار ان يعين سلاطين

---

(١) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ج١، ص١٨٤.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٥١-٥٩.

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٠٥، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٥٥، ق٢، ج١، ص٣٤٧، وسيشار اليه فيما بعد محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك.

(٤) نفس المصدر، ج٤، ص١١٦-١١٧.

(٥) نفس المصدر، ج٤، ص٢٨٦.

المماليك لكل قبيلة امير ويكتبون بذلك تقليداً سلطانياً وكان الامير المعين يلبس تشريفاً اطلس اسوه باقرانه في السُّلم الاقطاعي وعلى هذا أقبل الأمراء على البذل والبرطلة للسلاطين في هذه الدولة بهدف قضاء مصالحهم الشخصية(١).

ولعل من اكبر المبالغ التي كان على نابلس ان تدفعها للدولة المملوكية تلك المبالغ التي اقرت عام (٩٢٠هـ/١٥١٤م) لإستخدامها في تجهيز حملة لقتال العثمانيين حيث بلغت قيمتها مائة واربعة وعشرين ألف دينار، وقد قام سكان نابلس بدفع هذه المبالغ المقررة عليهم(٢) وهي اشارة ضمنية نستطيع ان نتبين منها أن أحوال منطقة نابلس ظلت مزدهرة حتى أواخر عصر الدولة المملوكية رغم كل ما تعرضت له على يد المماليك من قتل ونهب وتدمير وخراب اقتصادي، حتى تتمكن من دفع هذا المبلغ الضخم بمقاييس تلك الأيام كذلك يشير الى كثافة سكانية عالية استطاعت جمع هذه المبالغ الطائلة.

على أية حال أصبحت الأحوال في الدولة المملوكية تتسم بالغموض والإضطراب نتيجة لتعاقب السلاطين على الدولة بعد قايتباي وما صاحب هذا التعاقب من نزاعات تنشأ بينهم وهو ما قاد الدولة إلى مصير مظلم وصاحب ذلك انتشار الأوبئة والأمراض، في هذا الوقت كانت نابلس تراقب تفاعل هذه الأحداث وتطورها وبخاصة تطور الاحداث بين المماليك والعثمانيين، وهو التطور الذي قاد الى مرحلة الصدام المباشر بين الطرفين في معركة فاصلة هي معركة مرج دابق ٩٢٢هـ/١٥١٦م. والتي هزم فيها المماليك وتوفي سلطانهم قانصوه الغوري(٣) وبعد ذلك سار السلطان العثماني سليم الأول إلى مصر للاستيلاء عليها فتسلم وهو في طريقه اليها كل من طرابلس، وصفد، وغزة، وبيت المقدس، نابلس والبلاد التي حولها بالأمان ومن غير حرب ولا

---

(١) أحمد عبد الرزاق: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩، ص٦٥.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٠٨.

(٣) نفس المصدر، ج٥، ص٦٨-٦٩.

مانع وهو ما لم يتفق لاحد من الملوك قبله(١) ، وهكذا دخلت نابلس في حوزة الدولة العثمانية لتبدأ مرحلة اخرى من مراحل تاريخها.

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٥، ص١٥٢.